87-san

عيسى الهَكَّارِيّ (ت٥٨٥هـ/١١٨٩م)

بينَ الفقهِ والحربِ والسياسةِ

حجازي عبد المنعم سليمان[١]

تتصدى هذه الدراسة لمعالجة شخصية كردية لعبت دورًا مهمًا في مصر وبلاد الشام خلال الفترة الأخيرة من الدولة الفاطمية وبداية الدولة الأيوبية ممثلة في الفقيه ضياء الدين عيسى بن محمد بن عيسى الهكاري[٢] الكردي الشافعي[٣]، وذلك

---

(١) أستاذ تاريخ العصور المساعد بكلية الآداب ـ جامعة المنوفية.

(٢) حمل الفقيه عيسى لقب الهكاري نسبة إلى منطقة هكاري وهي منطقة جبلية يغلب عليها شدة الوعورة وقممها شامخة ووديانها ضيقة، وتقع جنوب شرق تركيا حاليًا، وتتاخم الحدود الإيرانية شرقًا والحدود العراقية جنوبًا، ويسكنها أكراد يُقال لهم الهكارية وهم قبائل من الأكراد الذين استقروا في ديار بكر من أعالي الجزيرة الفراتية ولهم فيها قلاع محصنة، وقد أنجبت منطقة هكاري كثيرًا من العلماء والقادة البارزين. انظر: ياقوت الحموي (ياقوت بن عبد الله الحموي البغدادي، المتوفى سنة ٦٢٦هـ/١٢٩٩م): معجم البلدان، مج ٥، بيروت ـ دار صادر، ١٩٧٧م، ٤٠٨؛ ابن أبي الهيجاء (الأمير عز الدين الهذباني، المتوفى ٧٠٠هـ/١٣٠٠م): تاريخ ابن أبي الهيجاء، تحقيق: صبحي عبد المنعم محمد، ط ١، دار رياض الصالحين، ١٩٩٣م، ٢٠٣. وأيضًا: محمود محمد الرويضي: «عماد الدين أحمد بن المشطوب وأثر حركات عصيانه على سلاطين بني أيوب وملوكهم» (٥٩٠-٦١٩هـ/١١٩٣-١٢٢٢م)، المجلة الأردنية للتاريخ والآثار، مج ٣، عدد ٢، ٢٠٠٩م، ٦٥-٧٠.

(٣) ابن كثير (عماد الدين إسماعيل بن عمر بن كثير، المتوفى سنة ٧٧٤هـ/١٣٧٣م): طبقات الشافعية، تحقيق: عبد الحفيظ منصور، ط ١، ١: ٦٦٥-٦٦٦، بنغازي، ليبيا ـ دار المدار الإسلامي، ٢٠٠٤م. =

من خلال عدة محاور يتصدرها أهمية الدراسة وجدواها وإشكالاتها والتعريف بالفقيه عيسى وشهادة المؤرخين المعاصرين في حقه فضلًا عن دوره في الفقه والقضاء والحروب التي خاضها والمهمات السياسية والدبلوماسية التي كُلف بها.

وتنبع **أهمية دراسة دور الفقيه عيسى** الفقهي والحربي والسياسي من المنطلق ذاته الذي حرص فيه صلاح الدين الأيوبي على تقدير جهود المحيطين به من ذوي الرؤية والبصيرة من الأمراء والعلماء والفقهاء والأدباء وغيرهم من أرباب السيف والقلم(٤)

=وفيما يخص نسب الفقيه عيسى فقد نسبه ابن خلّكان إلى سيدنا علي بن أبي طالب ﷺ بقوله: «...الفقيه أبو محمد عيسى بن محمد بن عيسى بن محمد بن أحمد بن يوسف بن القاسم بن عيسى بن محمد بن القاسم بن محمد بن الحسن بن زيد بن الحسن بن علي بن أبي طالب ﷺ، هكذا أملى عليّ نسبه ولدُ ولدِ أخيه، ويُقال له الهكاري المُلقب ضياء الدين». ولم يُعلّق ابن خلكان على هذا النسب الذي اختلطت فيه النسبة الكردية الهكارية بالنسبة العربية الهاشمية، وحمّل حفيد أخي الفقيه عيسى مسؤولية هذه المعلومة، وكأنه يُعلن بوضوح عن عدم مسئوليته عن صحتها من عدمه.

بيد أن الباحث يُؤيد الرأي القائل إن نسبة الفقيه عيسى إلى سلالة الحسن بن علي بن أبي طالب مجرد اختلاق هدفه الرغبة في الانتساب إلى آل البيت رضوان الله عليهم للفوز بالمقام الرفيع الذي يمنحه المسلمون عادة لمن ينتمي إلى آل البيت، وقد نهج هذا الدرب بعض العرب وغيرهم للفوز بالمزايا التي يختص بها آل بيت النبي ﷺ، ويمكن دحض الرأي القائل إن للفقيه عيسى أصول تعود إلى بيت النبوة من خلال ما يلي:

ا ـ لم يذكر الفقيه عيسى لأحد نسبته إلى علي بن أبي طالب ﷺ وإنما ذكره حفيد أخيه، ولو كانت أسرته عربية هاشمية لما تردّد الفقيه عيسى في إعلان ذلك لأنه مُدعاة للفخر.

ب ـ أكد أغلب من كتب عن الفقيه عيسى من المؤرخين المعاصرين له أنه كردي هكاري، ولم يذكروا أنه عربي قرشي هاشمي، وهذا دليل آخر على أن الرجل نفسه لم يذكر شيئًا يتعلق بالنسب الهاشمي، ولو كان قد فعل ذلك لذكره من كتب عنه.

جـ ـ وقف الفقيه عيسى إلى جانب الأكراد طوال حياته ولم يدعم غيرهم من العرب أو غير العرب ومن ثم دحض الرأي المنادي بنسبة الفقيه عيسى إلى آل بيت النبوة وتأكيد انتسابه إلى أصله الكردي الهكاري الذي عُرف به في عصره. انظر: ابن خلكان (أحمد بن محمد بن إبراهيم، المتوفى سنة ٦٨١هـ/ ١٢٨٢م): وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق: إحسان عباس، ٣: ٤٩٧-٤٩٨، بيروت ـ دار صادر ١٩٧٠م.

وبخاصة أنه كان مُرافقًا لصلاح الدين كظله منذ أسند إليه الوزارة وحتى لحظة وفاته ، وقد نجح الفقيه عيسى في أن يكون أحد دعائم الدولة التي أرسى لها صلاح الدين منذ اليوم الذي أقنع فيه الأمراء المُعارضين لوزارة صلاح الدين بقبوله وزيرًا وقائدًا[١] وحتى لحظة وفاته في الخروبة عام ٥٨٥هـ/١١٨٩م[٢] ، ناهيك عن كونه أحد الفقهاء القلائل الذين جمعوا بين عمامة القضاة وزي المحاربين في الوقت ذاته ، ومن ثم العمل على سمات هذه الشخصية التي تعكس صورة الفقيه المحارب والسياسي الحذق ، فما أكثر حاجة المجتمعات إلى عالم الدين العامل الذي يعظ ويعمل فيكون سلوكه ترجمة حقيقية على أرض الواقع لوعظه ، وتتخطى مهاراته في علوم الدين حدود التنظير إلى البراعة السياسية والدبلوماسية حينما يتعامل مع الخصوم السياسيين ، ولعل في عدم وقوف الباحث على دراسة مستقلة بالعربية عن الفقيه عيسى الهكاري تتناول دوره في محيط عصره لسبب كافي ليقوم الباحث بدراسته.

ومن الإشكالات التي تُواجه هذا الموضوع والموضوعات الشبيهة به أنه من الصعب صب المادة العلمية في قالب ليس من سماته المرونة ليصف شخصية ما

---

(١) عفاف سيد صبره : «دور الفقهاء وعلماء المسلمين في جهاد الصليبيين» ، بحث منشور في كتاب دراسات في تاريخ الحروب الصليبية ، القاهرة ، ١٩٨٥م ، ٥٦ـ٥٧.

(٢) ابن الأثير (علي بن محمد الجزري ، المتوفى سنة ٦٣٠هـ/١٢٣٢م) : الكامل في التاريخ ، حققه وراجعه : محمد يوسف الدقاق ، ١٠: ١٧ـ١٨، لبنان ـ دار الكتب العلمية ٢٠٠٣م.

(٣) توفي الفقيه عيسى في الخروبة يوم ٤ من رمضان ٥٨٥هـ/١٥ من أكتوبر ١١٨٩م بسبب قولنج ألم به ، وقال ابن شداد في ذلك : «...مرض مرضًا يتعاهده وهو ضعيف النفس ، وعرض له إسهال أضعفه فلم تقطَع صلابته ولم يغب ذهنه عنه إلى أن مات...» . والخروبة حصن يُشرف على عكا ويقع على مسافة ١٦ كم إلى الجنوب الشرقي منها . انظر : ابن الأثير : الكامل ، ١٠: ٤٨٧؛ ابن شداد (بهاء الدين يوسف بن رافع بن تميم ، المتوفى سنة ٦٣٢هـ/١٢٣٤م) : النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية ، القاهرة ـ دار المنار ، ٢٠٠٠م ، ٤٨١؛ ياقوت الحموي ، معجم البلدان ٢: ٣٦٢.

ويعطيها حقها بما لها وما عليها ، وبخاصة أن المكتوب قد لا يُعبر بالضرورة عن الواقع في وقت غلب فيه على الكتابة التاريخية الذاتية والتأثر بشخوص المُترجم لهم بالقرب والبعد والحب والكره ، ويحدث هذا في الوقت الذي تتوفر فيه المادة العلمية فما بال الباحث حينما يصعب العثور عليها ، وقد تقتصر المادة المتاحة على الترجمة لمرحلة أو جزء من مرحلة في حياة المترجم له قد يكون وُفق فيها ونال فرصته أو أخفق مرحليًا ولكن لم يفشل مطلقًا والعكس ؛ ففي النهاية لا يُعد ذلك معيارًا تُقاس عليه حياة المُترجم له ، ولأجل هذا يسقط ما يسقط من حياة المترجم له وفقًا لاهتمامات مؤرخي العصر وتسقط معها بعض مراحل حياته.

وعلاوة على ذلك فثمة إشكالية أهم ممثلة في أنه من الصعب تقدير الدور الذي قام به الفقيه عيسى في عصر التفتت فيه أنظار المؤرخين إلى صلاح الدين بصفته البطل ـ أو الرمز ـ الذي أسهم في تقويض دعامات الكيان الصليبي ، فضلًا عن صعوبة صياغة إشارات المصادر المبهمة أحيانًا والقصيرة أحيانًا أخرى عن دور الفقيه عيسى دون التعرض للأحداث المعاصرة ومن ثم إعادة صياغتها في مجرى من الأحداث بات مألوفًا في دراسات المؤرخين المُحدثين ، مما يُجسد صعوبة أخرى في الحرص على الخروج عن المألوف لإبراز دور الفقيه عيسى في عصره ودون الغوص في الخلفيات التي باتت معروفة للقاصي والداني ودون انتزاع دور الفقيه عيسى من وعاء عصره ونسيج زمنه.

وعلى الرغم من ذيوع صيت الفقيه عيسى **وترديد المؤرخين المعاصرين** لاسمه ومعالجتهم للمهمات التي اضطلع بها فإنهم لم يذكروا شيئًا عن تاريخ ولادته ومن ثم عمره ووقت وفاته[1] أو ملامح من حياته في مرحلة الصبا ، ثم توالت بعض

---

(١) لم يذكر المؤرخون تاريخ ولادة الفقيه عيسى أو عمره وقت وفاته واكتفوا برصد تاريخ وفاته ، ولم يقف الباحث على عُمر رفيق له أو أخ قريب من عمره ليقارنه به بهدف استنتاج عمر الفقيه عيسى ،=

أخباره في الظهور في مرحلة الشباب على قول ابن خلكان : «... كان في مبدأ أمره يشتغل في الفقه بالمدرسة الزجّاجية[1] بمدينة حلب[2] ... فاتصل بالأمير أسد

=ولكن يمكن التماس اتجاه آخر قد يرجح العمر التقريبي للفقيه عيسى وقت وفاته بداية بحمله للقب الفقيه وتتلمذه على يد الحافظين الجليلين السلفي وابن عساكر وعمله كمحدث ثم إمامته لشيركوه ومناوراته البارعة في إسناد الوزارة لصلاح الدين سنة ٥٦٥هـ ، فضلًا عن مشاركته في المعارك حتى الوقت الذي تُوفي فيه في أرض المعركة عام ٥٨٥هـ ؛ فعمله بالفقه وتصديه لتدريس الحديث وإمامته بعدئذ لشيركوه تعني أنه لم يكن صغير السن ، فإذا ما وقفنا على مناوراته البارعة في إقناع عدد من كبار الأمراء بقبول صلاح الدين وزيرًا وقائدًا ولم يكن صلاح الدين قد تجاوز سن الثانية والثلاثين أدركنا أننا أمام شخصية ناضجة لديها قدرة على التأثير في الآخرين وإقناعهم باتخاذ مواقف خطيرة مع أشخاص ربما كان قريبًا منهم في السن ، وبخاصة أن صلاح الدين استخدم الفقيه عيسى سفيرًا بعد هذا بعام ليقنع نورالدين بالتخلي عن المخاوف التي ساورته عقب وزارة صلاح الدين للعاضد الفاطمي ، فهذا يعني أننا أمام شخصية قد تجاوزت سن الأربعين على الأقل وقت وزارة صلاح الدين ومن ثم فإنه حينما توفي بعد عشرين سنة عام ٥٨٥هـ يكون عمره ٦٥ سنة تقريبًا وهو سن يسمح له بحمل السلاح ومجاراة المحاربين وربما التفوق عليهم في أرض المعركة وليس أكبر من هذا وبخاصة مع تأكيد بعض المؤرخين احتفاظه بعقله ووعيه حتى في مرضه الذي أفضى إلى وفاته في أثناء وجوده في أرض المعركة . انظر : ابن خلكان : وفيات الأعيان ٣: ٤٩٧؛ ابن الأثير : الكامل ١٠: ١٨٧؛ ابن شداد : النوادر السلطانية ٨١.

(١) أنشأ مدرسة الزجاجية الأمير بدر الدولة أبو الربيع سليمان بن عبد الجبار بن أرتق حاكم حلب ، وهي أول مدرسة بنيت بها وقد شرع في عمارتها عام ٥١٦هـ وإن أشار ابن شداد إلى أنه رأى على حائط المدرسة عبارة تؤكد تشييدها عام ٥١٧هـ . انظر : ابن شداد (عز الدين محمد بن علي بن إبراهيم المتوفى سنة ١٢٨٥/٦٨٤م) : الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة ، تحقيق : يحي زكريا إبراهيم ، ١: ٢٤١-٢٤٤، دمشق ، ١٩٩١م ؛ ابن الشحنة(محمدبن الشحنة ، المتوفى سنة ٨٩٠هـ/١٤٨٥م) : الدر المنتخب في تاريخ حلب ، دمشق ، ١٩٨٤م ، ١٠٩-١١٠.

(٢) ابن خلكان : وفيات الأعيان ٣: ٤٩٧. وأيضًا : الصفدي (صلاح الدين خليل بن أيبك بن عبد الله ، المتوفى سنة ١٣٦٣/٧٦٤م) : الوافي بالوفيات ، تحقيق : أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى ، ٢٣: ١٧٠، بيروت ، لبنان ، ٢٠٠٠م ؛ ابن كثير : البداية والنهاية ، ١٢: ٣٣٤؛ ابن تغري بردي (يوسف ابن تغري بردي الأتابكي ، المتوفى سنة ٨٧٤هـ/١٤٧٠م) : النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، قدم له وعلق عليه : محمد حسين شمس الدين ، ٦: ١١٠، بيروت ، لبنان - دار الكتب العلمية ١٩٩٢م.

الدين شيركوه ...»[١]، وأردف ابن الأثير عنه قائلًا: «من أعيان أمراء العسكر، ومن قدماء الأسدية ... اتصل بأسد الدين شيركوه ... فرأى من شجاعته ما جعل له إقطاعًا ...»[٢]، وذلك بعد التحاقه بالفرقة الأسدية فحاز ثقة شيركوه واصطحبه معه خلال حملاته على مصر وإن لم يظهر دوره ويتردد اسمه سوى في حملة عام ٥٦٤هـ/١١٦٨م التي قادت شيركوه إلى سُدة الوزارة الفاطمية[٣].

وقد نهج عماد الدين زنكي سياسة بعيدة النظر بضم الكثيرين من الأكراد إلى جيشه سواء من المحاربين أم الفقهاء[٤] بهدف تقوية وضعه في بلاد الشام، وأثبت الأكراد حسن ظن زنكي بهم حينما دعموه في حياته وساندوا ولده نورالدين محمود بن زنكي فيما بعد، وأدوا الدور ذاته مع صلاح الدين بمشاركتهم بداية في الحملات التي قادها شيركوه ضد مصر ومن بينهم الفقيه عيسى وأخيه الظهير

---

(١) ابن خلكان: وفيات الأعيان ٣: ٤٩٧.

(٢) ابن الأثير: الكامل ١٠: ١٨٧.

(٣) ابن الأثير: التاريخ الباهر في أخبار الدولة الأتابكية بالموصل، تحقيق: عبد القادر أحمد طليمات، بغداد ـ دار الكتب الحديثة، ١١٩، ١٢٠، ١٣٢، ١٣٧؛ ابن شداد: النوادر السلطانية ٤٦.

(٤) ضم عماد الدين زنكي إلى جيشه من الأكراد نوعين من القوى: قوة حربية مثل الهذبانيين وبني أيوب، وقد كون شيركوه فرقة الأسدية نسبة إليه، أما القوة الثانية فتمثلت في الفقهاء الأكراد وعلى رأسهم آل الشهرزوري ومنهم كمال الدين الشهرزوري الذي وُلي القضاء والوزارة وقم اعتمد عليهم زنكي في أمور القضاء والوزارة والإفتاء وما سوى ذلك.

وكان للفقهاء قوة لوجستية في تحريك الدعم الشعبي والجماهيري لتأييد سياسة عماد الدين زنكي، وقُدر للقوى الكردية بشقيها الحربي والفقهي مساندة نورالدين ليصل إلى الحكم في حلب وبلاد الشام وتعلن عن انتصارها على القوة التركمانية التي دعمت سيف الدين غازي الابن الثاني لعماد الدين زنكي. انظر: عفاف صبره: دور الفقهاء وعلماء المسلمين ٣٩ـ ٦٠؛ ليلى عبد الجواد إسماعيل: «أضواء على الأكراد الهكارية في عصر صلاح الدين الأيوبي»، مجلة كلية الآداب، جامعة القاهرة، عدد ٦١، ١٩٩٤م، ١٤٩ـ ١٩٠.

وشهاب الدين الحارمي وقطب الدين خسرو الهذباني وغيرهم[٥]، ناهيك عن الأمير سيف الدين بن المشطوب الذي ساند صلاح الدين ودعمه وكان ساعده الأيمن في إخضاع الأكراد الهكارية لسيادته عام ٥٨١هـ/١١٨٥م[٦]، علاوة على عدة شخصيات كردية أخرى مُؤثرة مثل أسر الهذبانيين والشهرزوري وبني أيوب وغيرهم[٧]، ومن ثم فلم يكن الفقيه عيسى الحالة الفريدة التي مثّلت الأكراد الهكارية تمثيلًا مشرفًا في النواحي السياسية والحربية والعلمية آنذاك ولكن كان لأخبار الفقيه عيسى تقديرًا خاصًا من قبل المؤرخين المعاصرين، حينما حرصوا على رصد بعض تحركاته وأحيانًا استخدام اسمه في بعض النبوءات والبشارات التي ترددت عن فتح بيت المقدس قبل أن يحدث ذلك بفترة[٨]، كما اهتم المؤرخون

---

(١) ابن خلّكان: وفيات الأعيان ٧: ١٥٤ـ١٥٨.

(٢) البنداري (علي بن محمدالبنداري، المتوفى سنة ٦١٤هـ/١٢١٧م): سنا البرق الشامي، تحقيق: فتحية النبراوي، القاهرة ـ مكتبة الخانجي، ١٩٧٩م، ٢٥٨ـ ٢٥٩؛ ابن شاهنشاه الأيوبي (محمد بن تقي الدين عمر، المتوفى سنة ٦١٧هـ/١٢٢٠م): مضمار الحقائق وسر الخلائق، تحقيق: حسن حبشي، ١: ٢١٤، القاهرة ـ دار المعرفة، (د.ت)؛ سبط بن الجوزي (يوسف بن قزاوغلي، المتوفى سنة ٦٥٤هـ/ ١٢٥٦م): مرآة الزمان في تاريخ الأعيان، ٨: ٤٢٠، حيدر آباد الدكن، الهند ـ دار المعارف العثمانية، ١٩٥١م؛ العيني (بدر الدين محمود، المتوفى سنة ٨٥٥هـ/١٤٥١م): عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان، الموسوعة الشامية، ترجمة سهيل زكار، ٢٤: ٤٤٠، دمشق ـ دار الفكر، ١٩٩٥. وأيضًا: ليلى عبد الجواد إسماعيل: «أضواء على الأكراد الهكارية» ١٤٩ـ ١٥١.

(٣) أبو شامة (عبد الرحمن بن إسماعيل المقدسي ت ٦٦٥هـ/١٢٦٧م): الروضتين في أخبار الدولتين، تحقيق: محمدُ حلمي محمد، ١: ٥٤٧، ق ٢، القاهرة، ١٩٦٢م.

(٤) ارتبط اسم الفقيه عيسى بعدة بشارات ونبوءات عن فتح القدس منها نبوءة الحكيم أبو سليمان الذي اعتنى به في أسره واستضافه في بيته في بيت المقدس حتى استرد عافيته وتوقعه استرداد بيت المقدس في وقت محدد وبعث بذلك إلى صلاح الدين عن طريق الفقيه عيسى، ومنها بشارة الفقيه مجد الدين بن جهبل الشافعي، وقد توصل ابن جهبل من خلال تفسيره لقوله تعالى ﴿ألم * غلبت الروم﴾ إلى موعد فتح القدس على يد صلاح الدين في رجب سنة ٥٨٣هـ/سبتمبر ١١٨٧م واستدل ابن جهبل على ذلك بكثير من الدلالات. وفي الحالتين فقد استُخدم اسم الفقيه عيسى كواسطة لتوصيل النبوءة أو البشارة إلى صلاح=

بمتابعة أخباره في أَسْرِهِ وكيفية التعامل معه وكيفية إطلاق سراحه والمبلغ الذي دُفع فدية له[1].

=الدين ربما لأنه من القلائل الذين وثق صلاح الدين في شخصيتهم وعلمهم وفقههم ولم يتجاسر غيره على إبلاغ صلاح الدين بها . انظر : أبو شامة : الروضتين في أخبار الدولتين ، وضع حواشيه وعلق عليه : إبراهيم شمس الدين ، ٣: ١١١، بيروت ـ دار الكتب العلمية ، ٢٠٠٢م ؛ الصفدي : الوافي بالوفيات ١٣: ٣١٩.

(١) اهتم المؤرخون والمترجمون بقضية أسر الفقيه عيسى بحيث أشار إليها أغلب المؤرخين المعاصرين واللاحقين ؛ فقد أشار أبو شامة إلى أن الفقيه عيسى وأخوه قد ظلا في الأسر سنين حتى تم تخليصهم بستين أو بسبعين ألف دينار ، وقد اختفت أخبار الفقيه عيسى من كتابات المؤرخين على غير عادتهم حتى عام ٥٧٥هـ/١١٧٩م عقب معركة مرج العيون التي انتصر فيها صلاح الدين على الصليبيين . ويُفهم من رواية ساقها الصفدي عن الحكيم أبو سليمان الذي تدخل لإطلاق سراح الفقيه عيسى بأن الأخير لم يمكث في الأسر كثيرًا ، وقد أفاد صلاح الدين من وقوع عدد كبير من مقدمي الداوية والإسبتارية في أسره في معركة مرج العيون ومنهم باليان أوف ابلين الثاني المعروف في المصادر العربية بابن بارزان وذلك من خلال مبالغ الفدية الضخمة التي قررها عليهم ومنها افتدى الفقيه عيسى وأخيه «...وأما ابن بارزان فإنه بعد سنة بذل في نفسه مائة وخمسين ألف دينار صورية ، وإطلاق ألف أسير من المسلمين ، وكان الفقيه ضياء الدين عيسى من نوبة الرملة عندهم من المأسورين ، فالتزم إدراكه وأن يؤدي من قطيعة المذكور القطيعة التي قرر بها فكاكه...» ، وهذا يعني أن إطلاق سراح الفقيه عيسى قد حدث بعد معركة مرج العيون بسنة كاملة أي عام ٥٧٦هـ/١١٧٩م ، بعد إطلاق سراح باليان الثاني الذي مكث في الأسر سنة .

ويُستشف من الرواية التي ساقها الصفدي عن أسر الفقيه عيسى أنه تم التشديد عليه لمكانته التي سيترتب عليها تقدير قيمة عالية لفديته ، وحتى الحكيم سليمان عرف مكانته ولكن بطريقته الخاصة ، وقد تدخل لنقله من الجب إلى بيته وعكف على خدمته بنفسه بعد ضمان قدمه للملك بلدوين الرابع . انظر : أبو شامة : الروضتين ٢: ٣٠٥، ٣: ١٩؛ الصفدي : الوافي بالوفيات ١٣: ٣١٩؛ ابن كثير : البداية والنهاية ١١: ٢٩٨. وأيضًا :

WILLIAM of TYRE, *A History of Deeds Done beyond the Sea,* trans. and annotated by E.A. Babcock and A.C. Krey, vol II, New York, (1943), p.501-504.; RICHARD OF HOLY TRINITY, *Itinerary of Richard I and others to the Holy Land* (formerly ascribed to Geoffrey de Vinsauf), Cambridge, Ontario, (2001), pp.4-5, 121-122, 203. See also: R. GROUSSET, *Histoire des Croisades et du Royaume France de Jerusalem,* 3 vols., Paris (1934-6), pp.675-678; J. RICHARD, *Le Royaume Latin de*

وتُبلور آراء المؤرخين في حق الفقيه عيسى الكثير من الخصال التي تمتع بها والأفعال التي قام بها، فقال ابن شداد : «... وكان رحمه الله كريمًا شجاعًا حسن المقصد كبير الغرام بقضاء حوائج المسلمين ...»[١]، وقال ابن الأثير : «... كان فقيهًا جنديًا شجاعًا كريمًا ذا عصبية ومروءة ... ثم اتصل بأسد الدين شيركوه، فصار إمامًا له، فرأى من شجاعته ما جعل له إقطاعًا، وتقدم عند صلاح الدين تقدمًا عظيمًا»[٢]، وهذا يعني أنه بفضل ريع هذا الإقطاع فإنه كرس وقته لخدمة صلاح الدين ودولته ولم ينشغل بجني لقمة العيش.

وعن خدمته للعامة وقضاء حوائجهم قال ابن خلكان : «... وكان واسطة خير للناس نفع بجاهه خلقًا كثيرًا ...»[٣]، وأكده الصفدي بقوله : «...لا يكاد يدخل على صلاح الدين إلا ومعه أوراق أو قصص في عمامته ومنديله وكمه وفي يده فيكتب عليها ...»[٤]، وهذا يقودنا إلى المكانة التي حظي بها لدى صلاح الدين. على قول ابن خلكان : «... ولم يكن يخرج ـ أي صلاح الدين ـ عن رأيه وكان كثير الإدلال عليه، يخاطبه بما لا يقدر عليه غيره من الكلام ... ولم يزل على مكانته وتوفر حرمته إلى أن توفي ...»[٥]، وقال السبكي في المعنى ذاته : «وكان له إدلال على الملك صلاح الدين كبير، يدخل إليه ومعه القصص الكثيرة فيقضيها له...»[٦]، وبالرغم من حبه للعامة وسعيه لقضاء حوائجهم فإنه كان على قول ابن

Jérusalem, (Paris 1953), p.57; EDBURY, «Propaganda and Faction»' in M. M. Crusaders and Muslims in Twelfth-Century Syria, ed. Maya Shatzmiller, E.J. Brill, New York (1993), pp.176-177.

(١) ابن شداد : النوادر ٨١.

(٢) ابن الأثير : الكامل ١٠: ٨٥ـ٨٦، ١٩٠.

(٣) ابن خلكان : وفيات الأعيان ٣: ٤٩٧.

(٤) الصفدي : الوافي بالوفيات ٢٣: ١٧٠.

(٥) ابن خلكان : وفيات الأعيان ٣: ٤٩٧.

(٦) السبكي (تاج الدين عبد الوهاب بن علي، المتوفى سنة ٧٧١هـ/١٣٧٠م) : طبقات الشافعية=

حجر العسقلاني «... وجيهًا في الدولة ومسموع الكلمة ...»[١]، وكذلك قال ابن تغري بردي: «... وكان صلاح الدين يميل إليه ويستشيره، وكأن الله قد أقامه لقضاء حوائج الناس والتفريج عن المكروبين مع الورع والعفة والدين ...»[٢].

ولم تقف مساعدة الفقيه عيسى للعامة وتوسطه لأجلهم عند المسلمين وإنما امتدت إلى مسيحي بيت المقدس الذين توسط لأجلهم لدى صلاح الدين كي يستقروا في بيت المقدس مقابل دفع جزية مناسبة بعد خروج الصليبيين منها عام ٥٨٣هـ/١١٨٧م[٣]، كما كان واسطة بين صلاح الدين وبين المؤرخين والعلماء والأدباء والشعراء في مواقف كثيرة[٤] دلالة على المكانة التي شغلها في الدولة الأيوبية.

=الكبرى، تحقيق: محمود الطناحي وعبد الفتاح الحلو، ٧: ٢٥٥-٢٥٦، القاهرة - دار إحياء الكتب العربية، (د).

(١) ابن حجر (شهاب الدين أحمد بن علي بن محمد العسقلاني، المتوفى سنة ٨٥٢هـ/١٤٤٩م): رفع الإصر عن قضاة مصر، تحقيق: على محمد عمر، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٩٨م، ٢٩٤.

(٢) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ٦: ١٠٠.

(٣) توسط الفقيه عيسى خلال ولايته لبيت المقدس لدى صلاح الدين لصالح المسيحيين من سكان بيت المقدس الذين أبدوا استعدادهم لدفع الجزية مقابل بقائهم في بيت المقدس بعد طرد الصليبيين فقبل صلاح الدين وساطته «...وأما النصارى الساكنون بالقدس فإنهم بذلوا مع القطيعة الجزية ليسكنوا ولا ينزعجوا ويُؤمنوا ولا يخرجوا فأقروا بوساطة الفقيه ...» وذلك عام ٥٨٣هـ/١١٨٧م. انظر: البنداري: سنا البرق، ٣١٦-٣١٧. وأيضًا: ثريا بنت محمد الغانمي: بيت المقدس في العصر الأيوبي (٥٨٣-٦٤٨هـ/ ١١٨٧-١٢٥٠م)، ماجستير غير منشورة، كلية التربية للبنات، جدة، ١٩٩١م، ١٩٩؛ ليلى عبد الجواد: «أضواء على الأكراد الهكارية» ١٨١-١٨٢.

(٤) ابن شداد: النوادر ٥٦-٥٧.

من المواقف التي كلف بها الفقيه عيسى بالتواصل مع العلماء والأدباء نيابة عن صلاح الدين ما أشار له ابن شداد عام ٥٨٤هـ/١١٨٨م من قدوم الفقيه عيسى إليه كي يُعلمه برغبة السلطان في بقاءه ضمن حاشيته وأن لا يعود إلى الموصل الآن وترحيبه بذلك، فضلًا عن تكليف الفقيه عيسى أيضًا بمهمة صغيرة ممثلة في جمع قصائد الأدباء والشعراء الذين كتبوها في صلاح الدين حينما نزل على الموصل عام ٥٨١هـ/ ١١٨٥م يرجون صلاته وأعطياته وذلك عقب مرض صلاح الدين مرضًا شديدًا حتى أرجف العامة والجند=

وفيما يخص دور الفقيه عيسى في **الفقه والقضاء** فقد عرفت مصادر العصر عيسى الهكاري بالفقيه الذي بدأ حياته بدراسة الفقه على المذهب الشافعي، وحينما التحق بخدمة أسد الدين شيركوه فإنه لحق به لهذه الصفة أي صفة الفقيه الذي درس العلوم الدينية؛ فقد اشتغل الفقيه عيسى في مبتدأ أمره بالفقه على مذهب الشافعي في جزيرة ابن عمر[١] على شيخه الإمام أبي القاسم بن البَزْري[٢] ثم استكمل دراسة الفقه في حلب ـ وكانت حينذاك من العواصم الثقافية الكبرى ـ في المدرسة الزجّاجيّة[٣] وسمع الحديث من الحافظين أبي طاهر السلفي[٤] وأبي القاسم ابن عساكر وحدث[٥]، ويبدو أنه أجاد في علم الفقه وأُجيز فيه على عادة

=بموته على غير الحقيقة، فلما عوفي صلاح الدين فإنه كلف الفقيه عيسى بأن يتسلّم أعمال الأدباء فتلقاها منهم ثم حولها إلى العماد الأصفهاني كي يُقيّمها وعلى قدر ما فيها من إبداع وبلاغة فإنه منح أربابها من عطايا السلطان. انظر: البنداري: سنا البرق الشامي ٢٧٠؛ ابن شداد: النوادر ٤٥.

(١) هي جزيرة بوتان القريبة من منطقة هكاري في كردستان. انظر: ابن الأثير: الباهر ٤٨؛ ابن أبي الهيجاء: تاريخ ابن أبي الهيجاء ٢٠٣. وأيضًا: محمود محمد الرويضي: «عماد الدين أحمد بن المشطوب» ٦٥ـ ٧٠.

(٢) ابن البزري: هو أبو القاسم عمر بن محمد بن أحمد المعروف بابن البزري الجزري الفقيه الشافعي إمام جزيرة ابني عمر وفقيهها ومفتيها. ولد سنة ٤٧١هـ وتوفي في ٢ من ربيع الأول ـ وقيل الآخر ـ سنة ٥٦٠هـ. والبَزْري نسبة إلى عمل البزر أو بيعه والبزر في تلك البلاد اسم للدهن المستخرج من حب الكتان. وقد تفقه أولًا في الجزيرة على شيوخها ثم رحل إلى بغداد وأخذ عن شيوخها ومنهم الكيا الهراسي وحجة الإسلام أبي حامد الغزالي وأدرك جماعة من العلماء وأفاد منهم ورجع إلى الجزيرة ودرس بها، وقُصد من البلاد للاشتغال عليه، وصنف كتابًا شرح فيه إشكالات كتاب المهذب للشيخ أبي إسحاق الشيرازي وغريب ألفاظه وأسماء رجاله سماه الأسامي والعلل من كتاب المهذب وهو مختصر، وكان من أحفظ الفقهاء لمذهب الإمام الشافعي ﷺ، وانتفع به خلق كثير. انظر: ابن خلكان: وفيات الأعيان ٣: ٤٤٤.

(٣) ابن خلكان: وفيات الأعيان ٣: ٤٩٧. وأيضًا: الصفدي: الوافي بالوفيات ٢٣: ١٧٠؛ ابن كثير: البداية والنهاية ١٢: ٣٣٤؛ ابن تغري بردي: النجوم ٦: ١١٠.

(٤) أحمد بن محمد بن أحمد بن محمد بن إبراهيم سلفة السلفي، الحافظ أبو طاهر، صدر الدين الأصفهاني الشافعي، توفي سنة ٥٧٦هـ. أبو شامة: الروضتين ٣: ٧٦.

(٥) السبكي: طبقات الشافعية الكبرى ٧: ٢٥٥ـ ٢٥٦.

طلبة العلم آنذاك وحاز لقب الفقيه ، وقد أشار ابن كثير في طبقاته إليه بصفته ينتمي إلى الطبقة الثامنة من فقهاء الشافعية[١].

ولم يقف الباحث على أية مؤلفات للفقيه عيسى سواء في الفقه أم غيره مثلما لم يقف له على أية فتاوى دينية أو مواقف فقهية علمية لانشغاله بكثير من المهام التي كُلف بها ، وبالرغم من إشارة السبكي إلى أن القاضي محمد بن علي الأنصاري[٢] وغيره قد سمعوا عليه[٣] حينما جلس للحديث في مدينتي حلب وقيسارية[٤] فقد حدَث ذلك قبل التحاق الفقيه عيسى بخدمة أسد الدين وانشغاله بالحرب والسياسة ، وبالرغم من ذلك فقد أجمع المؤرخون على الترجمة له والتعليق على مشاركاته مقرونة بلفظ الفقيه بحيث لم يفارق لفظ الفقيه اسمه[٥] ، وإن كان لذلك دلالة فممثلة في أنه ظل يعظ ويمارس دور الفقيه حتى لحظة وفاته ومما يرجح ذلك احتفاظه بعمامة الفقهاء.

ويرى الباحث أن الفقيه عيسى جسّدَ القيمة الحقيقية للعالم الفقيه وحقق

---

(١) السبكي : طبقات الشافعية الكبرى ٧: ٢٥٥-٢٥٦؛ ابن كثير : طبقات الشافعية ١: ٦٦٥.

(٢) محمد بن علي بن عبد الله بن محمد بن ياسر الأنصاري أبو بكر : من أهل جيان بالأندلس ، وقد دخل بلاد الشام والعراق ومصر وخراسان وما وراء النهر ولقي الأئمة وتفقه بسنجار حتى برع في المذهب والجدل ، ثم درس الحديث واستقر أخيرًا في حلب وبها توفي سنة ٥٦٣هـ ، والراجح أنه أخذ عن الفقيه عيسى في حلب وقت إقامته فيها وتصديه لتدريس الفقه والحديث . انظر : السبكي : طبقات الشافعية ٦: ١٥٣-١٥٤.

(٣) السبكي : طبقات الشافعية الكبرى ٧: ٢٥٥-٢٥٦

(٤) قَيْسارِيةُ : بلد في فلسطين تقع على ساحل البحر المتوسط قريبة من طبرية وتُعدُ أقرب للقرى من المدن على وصف ياقوت الحموي بالرغم من قدمها وكثرة أهلها وخيرها في الفترات السابقة على عصر ياقوت وهي غير قيسارية الواقعة في آسيا الصغرى ويحكمها الأتراك السلاجقة . انظر : ياقوت الحموي : معجم البلدان ٤: ٤٢١-٤٢٢.

(٥) انظر : السبكي : طبقات الشافعية ٦: ١٥٣-١٥٤.

الغرض الأمثل من العلم من خلال التواصل مع العامة وقضاء حوائجهم لدى السلطان وغيره هذا بالرغم من علو منزلته ، إضافة إلى التفاف الجند حوله وحبهم له مما يعني تبسطه معهم أيضًا لأنه وقف بينهم في ساحات الوغى وتعرض معهم لما تعرضوا له بل وأسر وجرح وأصيب مثل كثيرين منهم ، فهذا التواصل الذي أحدثه الفقيه عيسى بين العامة من الفقراء والمعوزين وبين الطبقة العليا في المجتمع بمثابة ترجمة عملية لقوة أثر عالم الدين في مجتمعه بعلمه وفقهه وعمله وهذا هو الجمهور الحقيقي لقاعدة أعرض من الطلاب الذين أثر فيهم الفقيه عيسى.

ويُعد انتقال الفقيه عيسى إلى خدمة أسد الدين شيركوه كي يؤمه في الصلوات وانضمامه كمحارب إلى فرقة الأسدية التي أسسها أسدالدين شيركوه بداية مرحلة جديدة في حياته العلمية والعملية ، وبخاصة بعد ولاية شيركوه للوزارة الفاطمية في مصر فمن ناحية أصبح أميرًا كبيرًا ومن الناحية الأخرى فإن انخراطه في أمور الحرب أبعده عن التفرغ لدوره كفقيه ، ولكنه جمع بذلك بين أمرين تميز بهما بعض الهكارية وهما : الفقه من جهة والمهارة الحربية من جهة أخرى ، وسرعان ما اكتسب المناورة السياسية التي ميزت شخصيته بعد انتظامه في خدمة صلاح الدين الأيوبي.

أما عن المناصب ذات الصبغة الفقهية التي شغلها فقد أشار ابن حجر العسقلاني إلى أنه حينما انتقلت الوزارة إلى صلاح الدين بعد وفاة عمه وأُعيد القاضي الشيعي المُفضل بن هبة الله بن كامل إلى منصب قاضي القضاء في ذي الحجة ٥٦٥هـ/ ١١٧٠م فإنه أسند إلى الفقيه عيسى منصب قاضي القضاة في القاهرة رفيقًا لابن كامل[1] بينما أفرد مصر ـ أي العاصمة القديمة لمصر وسكنى العامة ـ لابن كامل

---

(١) عبد الله بن هبة الله بن معالي بن كامل بن عبد الكريم ، أصله من شَهْر زُور ، وكان ينوب في القضاء والدعوة ، ثم وُلي القضاء بعد صرف مجلي في أواخر شعبان سنة ٥٤٩هـ ، وولاه الصالح طلائع بن رُزِّيك وأضيفت إليه الدعوة ، وناب عن الخليفة الفائز في الخطابة في الأعياد ثم عُزل في العشر الأخير من=

الشيعي[١]، واستمر الحال على ذلك إلى أن أسند صلاح الدين منصب قاضي القضاة إلى صدر الدين عبد الملك بن عيسى بن دِرْبَاس الهكاري[٢] في جمادى الأولى ٥٦٦هـ/يناير ١١٧١م، وقد أسند إليه صلاح الدين القضاء في القاهرة ومصر والوجهين القبلي والبحري مستقلًا بغير مشارك، بمعنى أنه بات قاضي قضاة مصر وله نواب شافعية في سائر الأعمال[٣] «... وشرع صلاح الدين في تمهيد الخطبة لبني العباس وقطع الآذان بحي على خير العمل من ديار مصر كلها، وعزل قضاة مصر لأنهم كلهم كانوا شيعة، وولى أقضى القضاة بها صدرُ الدين بن درباس الشافعي واستناب في سائر الأعمال شافعية»[٤]، أما الفقيه عيسى فقد

=المحرم سنة ٥٥٨هـ وأُعيد أبو الفضائل يونس من قِبَل شاور ثم صُرف في العشر الأول من ذي الحجة وأُعيد ابن كامل ثانية في أوائل المحرم ٥٥٩هـ ثم صُرف في ربيع الأول سنة ٥٥٩هـ وولي الحسن بن علي بن العويرس، ثم أُعيد ثالثة في ذي الحجة سنة ٥٦٥هـ ثم صُرف في جمادى الأولى ٥٦٦هـ، وقتله السلطان صلاح الدين سنة ٥٦٩هـ فيمن قُتل مع عمارة اليمني بتهمة التآمر والخيانة. انظر: ابن حجر: رفع الإصر، ٢٠٤؛ السيوطي (جلال الدين عبد الرحمن، المتوفى سنة ٩١١هـ/١٥٠٥م): حُسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط ١، ٢: ١٥٣، القاهرة ـ دار إحياء الكتب العربية، ١٩٦٨م.

(١) المقريزي (تقي الدين أحمد بن علي، المتوفى سنة ٨٤٥هـ/١٤٤٢م): اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا، تحقيق: محمد حلمي أحمد، ٣: ٣١٨، القاهرة ـ الهيئة العامة لقصور الثقافة، ١٩٩٩م.

(٢) عبد الملك بن عيسى بن دِرْبَاس بن فِيْر بْن جَهْم بن عَبْدُوس الهَذَباني الماراني، نسبة إلَى قبيلة من الأكراد يُقال لَهَا ماران قريبة من الموصل. ولد في أواخر سنة ٥١٠هـ وتفقه على أبي سعد بن أبي عصرون وأبي الحسن علي بن سليمان المرادي، وسمع منه ومن غيره. وكان مشهورًا بالصلاح والخير والغَزْو وطلب العلم، ثم برع في الفقه وقدم الديار المصرية مع صلاح الدين فأقره في القضاء بِهَا في جمادى الآخرة سنة ٥٦٦هـ، وَكَانَ قبل ذَلِكَ قاضيًا بالغربية وأضاف إِلَيْهِ القضاء بكثير من البلاد الشامية ثُمَّ أضاف إِلَيْهِ الأحباس. انظر: ابن حجر العسقلاني: رفع الإصر ٢٥٢ـ٢٥٣.

(٣) ابن حجر: رفع الإصر ٢٩٤. وأيضًا: ابن كثير: طبقات الشافعية ٧١١ـ٧١٢؛ السيوطي: حسن المحاضرة ٢، ٥.

(٤) السيوطي: حسن المحاضرة ٢، ١٧.

اكتفى بالإمرة وظل يُنقل من إمرة إلى إمرة حتى صار من كبار أمراء الدولة الأيوبية وأعيانها[١].

وهذا يعني أن الفقيه عيسى لم يستمر في منصب القضاء سوى لمدة لم تزد عن سبعة أشهر وهو أمر مُحير قليلًا لمن لم يعرف الفقيه عيسى أو ابن درباس، فلطالما فضل الفقيه عيسى الابتعاد عن المناصب على ما سيتضح من موقفه من دعم صلاح الدين في سعيه لاعتلاء الوزارة ومن تعففه عن منصب القاضي ذاته فيما بعد في مصر والشام، وكان لاختيار صلاح الدين للفقيه عيسى كي يلي القضاء رفيقًا لابن كامل الشيعي ـ في الظاهر وإن كان في الحقيقة ندًا له في الباطن ـ مرحليًا ولهذه المدة القصيرة سبب وجيه وهو ألا ينفرد ابن كامل بالقضاء وحده في مدينة القاهرة القبلة الكبرى للشيعة آنذاك وبها قضاة الشيعة ودعاتهم وكبار رجال دولتهم، ومنح صلاح الدين مهلة مؤقتة حتى يقع اختياره على القاضي الأمثل كي يلي هذه المهمة الجليلة بشكل دائم، وبخاصة أن خطوات القضاء على المذهب الشيعي كانت تتم على قدم وساق في الوقت ذاته سواء بالتهميش السياسي للفاطميين والمتشيعين لهم أم بالتضييق الاقتصادي عليهم أم بتقويض دعائم المذهب الشيعي من خلال نشر المذهب السني وإنشاء المدارس لتدريس المذهب الشافعي[٢]، ولأجل هذا قال المقريزي في خلع ابن كامل وتعيين ابن درباس:

---

(١) السبكي: طبقات الشافعية الكبرى ٧: ٢٥٥ـ٢٥٦.

(٢) ابن الأثير: الباهر ١٤٣؛ المقريزي: اتعاظ الحنفا ٣: ٣١٨ـ٣١٩.

قَدّم صلاح الدين لقطع خطبة الفاطميين بعدة إجراءات للقضاء على المذهب الشيعي في مصر، من ذلك وضعه القصور الفاطمية في أيدي رجاله، والقضاء على الجند السوداني عصب الجيش الفاطمي بعد قضائه على جوهر مؤتمن الخلافة، وتحجيمه من سلطة الخليفة الفاطمي العاضد والتضييق عليه. واتجه صلاح الدين وأفراد أسرته إلى نشر المذهب الشافعي ـ وبقية المذاهب ـ وإقامة المدارس وأوقفوا عليها الأوقاف الكثيرة من أموالهم الخاصة، وذلك لنشر المذهب السني في مصر؛ فبنى صلاح الدين مدرسة للشافعية وبنى دار العدل مدرسة للشافعية أيضًا، وعزل قضاة المصريين وكانوا شيعة وأقام في مصر قاضيًا سنيًا شافعيًا،=

«...وفيها عزل صلاح الدين قضاء مصر من الشيعة ، وولي قاضي القضاة ... ابن درباس الهذباني الشافعي ، وجعل إليه الحكم في جميع بلاد مصر ... فعزل من كان بها من القضاة واستناب عنه قضاة شافعية ، ومن حينئذ اشتُهر مذهب الشافعي ومذهب مالك بديار مصر وتظاهر الناس بهما ، واختفى مذهب الشيعة من الإمامية والإسماعيلية وبطل من حينئذ مجلس الدعوة بالجامع الأزهر وغيره»[١].

ويؤكد التصرف السابق تصور محدد يُمثلُ في أن مهمة الفقيه عيسى لم تكن منصب قاضي القضاة في حد ذاته بقدر ما كانت محاولة ذكية من صلاح الدين لمنع انفراد القضاة الشيعة بأمر القضاء في القاهرة مركز ثقلهم وقوتهم دون صدام مباشر مع الفاطميين والشيعة حتى رتب أموره وعزل كل قضاة الشيعة من مصر وانتهت بذلك مهمة الفقيه عيسى الذي فضل وقتها الإمرة على القضاء ، ناهيك عن أن منصب قاضي القضاة لم يخرج عن الهكارية الذين انحاز لهم الفقيه عيسى الآن وفيما بعد[٢].

وظل الفقيه عيسى أميرًا له شأنه ويُؤخذ برأيه في القضايا الشائكة التي تحتاج إلى خبرة من على شاكلته ، وبخاصة تلك التي لها علاقة بالنواحي الدينية والفقهية ، وقد بدا حرص صلاح الدين على مراعاة مشاعر الفقيه عيسى جلية حينما علم بتعصب الأخير لوصية قاضي دمشق كمال الدين بن الشهرزوري الكردي بالقضاء بعده في دمشق والشام لابن أخيه ضياء الدين بن تاج الدين الشهرزوري هذا في

=واستناب القضاة الشافعية في جميع البلاد في ٢٠ من جمادى الآخرة ٥٦٦هـ/٦ من مارس١١٧١م ، كما بنى تقي الدين عمر ابن أخي صلاح الدين مدرسة للشافعية. انظر : ابن الأثير : الكامل ١٠: ٣١ـ ٣٢؛ السيوطي : حسن المحاضرة ١: ٤ـ ٦.

(١) المقريزي : اتعاظ الحنفا ٣: ٣١٥ـ ٣٢٠. وأيضًا : ابن الأثير : الكامل ١٠: ٣١ـ ٣٢؛ السيوطي : حسن المحاضرة ١: ٤ـ ٦.

(٢) المقريزي : اتعاظ الحنفا ٣: ٣١٥ـ ٣٢٠.

الوقت الذي رغب فيه صلاح الدين في إسناد القضاء إلى شرف الدين أبو سعد عبد الله بن أبي عصرون عام ٥٧٢هـ/١١٧٧م «... فأفضى بسر مراده إلى الأجل الفاضل، وكان الفقيه ضياء الدين عيسى يتعصب لشيخه فاستشعر الضياء العزل وأُشير عليه بالاستعفاء ففعل، فأُعفي وبقيت عليه الوكالة الشرعية عنه في بيع الأملاك»[١]، وبعد قليل عُيّن ضياء الدين بن الشهرزوري للرسالة في الديوان وظل فيها إلى آخر عهد صلاح الدين وذلك إرضاء للفقيه عيسى وحرصًا على مشاعره وتقديرًا لمكانته[٢]. ويحسب للفقيه عيسى استمراره في تقديم المساعدة للعامة بتوسطه لدى صلاح الدين وكبار الأمراء لقضاء حوائج العامة من المسلمين وغيرهم.

أما **دوره الحربي** فقد شارك الفقيه عيسى بنفسه في كثير من المعارك التي حضرها، وكان يصول ويجول في ميدان المعارك كبقية الفرسان والجنود وربما لأجل هذا رأى ابن الأثير أنه كان «... مُطاعًا في الجند ...»[٣]، كما اشتهر عنه أنه «... كان يلبس زي الأجناد ويعتم بعمائم الفقهاء فيجمع بين اللباسين»[٤]، ووصفه ابن حجر العسقلاني بالشجاعة والإقدام «... وله مواقف في القتال مشهورة ...»[٥]، ويرجح الباحث ملازمة الفقيه عيسى لشيركوه في حملاته الحربية التي قادها ضد مصر في أعوام ٥٥٩هـ/١١٦٤م، ٥٦٢هـ/١١٦٧م و٥٦٣هـ/١١٦٨م وبخاصة أنه كان منتظمًا في خدمة شيركوه آنذاك.

ولعل من المعارك التي شارك فيها وأبدى شجاعة وتفاني في القتال ضد

---

(١) أبو شامة: الروضتين ١: ق ٢، ٦٧٣.

(٢) نفسه ١: ٦٧٥.

(٣) ابن الأثير: الكامل ١٠: ١٣٩-١٤٠.

(٤) الصفدي: الوافي بالوفيات ٢٣: ١٧١.

(٥) ابن حجر: رفع الإصر عن قضاة مصر ٢٩٤.

الصليبيين ما حدث في معركة تل الصافية أو مونتجيسارد التي هُزم فيها صلاح الدين عام ٥٧٣هـ/١١٧٧م ، فبالرغم من الهزيمة فقد قال ابن الأثير عن مشاركة الفقيه عيسى : «وكان أشد الناس قتالاً ذلك اليوم الفقيه عيسى ... وتمت الهزيمة على المسلمين ، وحمل بعض الفرنج على صلاح الدين»[١] ، وكان الأخير قد توجه في جُمادى الآخرة إلى الساحل الشامي فهاجم عسقلان وعاث فيها فسادًا.

وحينما لم يجد صلاح الدين مقاومة من الصليبيين فإنه توسع في عملياته العسكرية حتى وصل إلى الرملة وحينها باغته مقدم الصليبيين رينو دو شاتيون المعروف بأرناط[٢] ولم يكن برفقة صلاح الدين سوى ثلة قليلة من عسكره بعد توغل أغلبهم في القرى التابعة للصليبيين[٣] ، فذهبوا بين قتيل وأسير «... وقدّر الله كسرتهم فانكسروا كسرة عظيمة ولم يكن لهم حصن قريب يؤون إليه فطلبوا جهة الديار المصرية وضلوا في الطريق وتبددوا وأُسر منهم جماعة منهم الفقيه

---

(١) عرفت هذه المعركة باسم تل الصافية في المصادر العربية وباسم مونتجيسارد MontGisart في المصادر الغربية . عن هذه المعركة وتداعياتها انظر : البنداري : سنا البرق الشامي ١٣١-١٣٢. وأيضًا :

WILLIAM of TYRE, *A History of Deeds,* vol. 2, pp.429-430; ERNOUL, *Le Chronique d Ernoul et de Bernard le Tresorier,* (ed.) Mas Latrie, Paris (1871), pp.43-45. See also: R.C. SMAIL, «Crusader's Castles of the Twelfth Century», in C.H.J., vol. 10, No.2, (1951), p.140; GROUSSET, *Histoire des Croisades,* Vol. II, p.654-655; M.W. BALDWIN, «The Decline and Fall of Jerusalem, 1174-1189», (ed.) Setton, vol.I, p.595.

(٢) رينو دي شاتيون : أحد الأمراء الفرنسيين الذين وفدوا على الشرق الصليبي في الحملة الصليبية الثانية ثم استقر في الشرق وحكم أنطاكية بصفته وصيًا للأمير القاصر بوهيموند الثالث ثم وقع في أسر المسلمين وظل مأسورًا ما يقرب من ١٦ عامًا ثم أطلق سراحه وبات حاكمًا لولاية إمارة الكرك ـ الشوبك كنائب للملك بلدوين الرابع . إنظر :

AYMERICI, *Patriarch Antiocheni, ad Ludovicum,* in RHGF, t. XVI, pp.61-62. See also: G. SCHLUMBERGER, *Renaud de Chatillon, Prince d'Antioche, seigneur de la terre d'outre-Jourdain, Librairie Plon,* Paris (1923), pp.144-194.

(٣) ابن الأثير : الكامل ١٠: ٨٥.

عيسى ...»[١]، وأُسر مع الفقيه عيسى أخيه الظهير وكانا قد سارا منهزمين فضلا الطريق فأُخذا، ثم افتداهما صلاح الدين بستين ألف دينار ـ وقيل بل بسبعين ألف ـ مع مجموعة أخرى من الأسرى عام ٥٧٥هـ/١١٨٠م[٢].

ولا يستبعد الباحث مشاركة الفقيه عيسى في معركة حطين وفي دخول القدس ـ برغم عدم وجود إشارة صريحة ـ وبخاصة إذا أخذنا برواية الصفدي التي أشار فيها إلى اتصال الفقيه عيسى بأبي سليمان الحكيم الذي بشره بفتح القدس، كما التمس من صلاح الدين ـ من خلال الفقيه عيسى ـ أن يؤمنه وأسرته حينما يدخلون القدس، وتؤكد الرواية أن الفقيه عيسى هو الذي تولى تأمين بيتهم وحيهم دخول المسلمين القدس عام ٥٨٣هـ/١١٨٧م وقد شكرهم صلاح الدين ومنحهم عطاياه[٣] وبالتالي مرافقة الفقيه عيسى لجيش صلاح الدين وقت دخوله القدس.

وعلاوة على ذلك فقد شارك الفقيه عيسى في حصار صور عام ٥٨٣هـ/ ١١٨٧م ـ واقترح على صلاح الدين ضرورة استمرار الحصار حينما وجد مشقة في التغلب على المركيز كونراد مونتيفرات أمير صور، بينما أبدى بعض القادة والجند رغبتهم في فض الحصار والرحيل نتيجة لطول البقاء وفشل الاستيلاء عليها «... فأشاروا على السلطان بالرحيل لئلا تفنى الرجال وتقل الأموال، وكان البرد

---

(١) ابن شداد: النوادر ٣٤.

(٢) سار صلاح الدين من القاهرة إلى عسقلان فسبى من الفرنج كثيرًا وغنم وسار إلى الرملة وقد تجمع الصليبيون ضده وحملوا عليه فانهزم المسلمون وثبت صلاح الدين وابن أخيه تقي الدين عمر، ودخل الليل واستولى الصليبيون على أثقال المسلمين واستشهد كثير من المسلمين وفقدوا الطعام والماء فعادوا إلى مصر. وأيضًا:

WILLIAM of TYRE, *A History of Deeds*, vol. 2, pp.429-431.

(٣) الصفدي: الوافي بالوفيات ١٣: ٣١٩.

قد اشتد عليهم، وكان رأي السلطان والأتقياء من الأمراء كالفقيه عيسى ... الثبات إلى الفتح لئلا يضيع ما تقدم من الأعمال وإنفاق الأموال ...»[١]، مما يعني أن هوى السلطان كان مع الرأي الذي اقترحه الفقيه عيسى وغيره لأن صلاح الدين استمر في الحصار نزولًا على نصيحتهم، ولكن غلبَ في النهاية الرأي الذي نادى بالرحيل عن صور دون الاستيلاء عليها.

وشغل الفقيه عيسى قلب الميسرة[٢] في جيش صلاح الدين في المعركة التي دارت على عكا قبيل انتقال صلاح الدين إلى الخروبة عام ٥٨٥هـ/١١٨٩م[٣]، وشارك فيها ابن شداد أيضًا ووصفها وصفًا دقيقًا، وأوضح أن الهكارية وفي مقدمتهم كل من الفقيه عيسى وابن عمه علي بن المشطوب وغيرهما قد تمركزوا

---

(١) أبو شامة: الروضتين ٣: ٢٦٧. وأيضًا: ابن خلكان: وفيات الأعيان ٧: ١٧٧-١٧٨، ١٨٨؛ ابن واصل (جمال الدين محمد بن سالم، المتوفى سنة ٦٩٧هـ/١٢٩٨م): مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، تحقيق: جمال الدين الشيال، ٢: ٢٨٤-٣٢٠، القاهرة - دار الكتب المصرية، ١٩٥٧م. وعن حصار صور ودفاع الماركيز كونراد مونتيفرات عنها انظر:

RICHARD OF HOLY TRINITY, *Itinerary,* pp.12-13, 15-17, 75-80.

(٢) أشارت الدكتورة ليلى عبد الجواد إلى أن الفقيه عيسى الهكاري قد شارك في قلب الجيش الذي هاجم عكا في تلك المعركة ورد على الجيش الصليبي، واستشهدت بهذه الواقعة لترد على نفي إيالون Ayalon بأنه لم يكن للأكراد دور في أجناد الحلقة بأنه كان لهم وجود فيها بالفعل مستشهدة بهذا النص، ولكن يختلف الباحث بأدب جم مع الدكتورة ليلى فيما يخص المكانة التي شغلها الفقيه عيسى في تشكيل تلك المعركة، فلم تشر المصادر إلى مشاركة الفقيه عيسى في قلب الجيش وإنما أشارت إلى مشاركته في الميسرة التي غلب عليها العناصر الهكارية وأنه قاد قلب الميسرة وليس قلب الجيش - الذي قاده صلاح الدين - وربما هذا ما أدى إلى حدوث التباس بهذا الشأن. انظر: ليلى عبد الجواد: «أضواء على الأكراد الهكارية» ١٧٢. وكذلك:

D. AYALON, «Aspects of the Mamluk Phenomenon Ayyubids, Kurds and Turks», *in The Mamluk Military Society,* Collected studies, London (1979), p.16.

(٣) ابن شداد: النوادر ٧٦؛ ابن واصل: مفرج الكروب ٢، ٢٩٦.

في الميسرة في أولها وآخرها وقلبها[١].

وفي الوقت الذي ثبتت فيه ميمنة جيش المسلمين وتقهقر فيه القلب وكاد يُهزم فقد ثبتت الميسرة التي غلب عليها الهكارية ـ يتصدرهم الفقيه عيسى ـ ربما لانشغال ميسرة الصليبيين وقلب جيشهم في مضارعة قلب جيش صلاح الدين وميمنته ، وحينما عاد قلب جيش الصليبيين عن متابعة تقدمه بسبب قطع إمداداته وخوف الصليبيين من الانقطاع عن أصحابهم بسبب منع ميمنة المسلمين لهم عن اللحاق بهم فقد تراجع الصليبيون وولوا ظهورهم لصلاح الدين وهو واقف على تل يُشرف على المعركة وهنا فإنه أمر جيشه بمتابعتهم[٢].

وهنا برز دور الميسرة الهكارية مع ميمنة جيش صلاح الدين «... وظل الناس في قتل وطرح وضرب وجرح إلى أن اتصل المنهزمون السالمون إلى عسكرهم فهجم عليهم في الخيام فخرج منهم أطلاب كانوا أعدوها خشية من مثل هذا الأمر...» ، وعندها تراجع صلاح الدين وقد أضنى التعب جنوده «... فرحين مسرورين وعاد السلطان ذلك اليوم إلى خيمته فرحًا مسرورًا ...»[٣] ، وهذا يعني أن التفاف ميسرة الهكارية بناء على أمر صلاح الدين قد نجح في تطويق الصليبيين بمشاركة من ميمنة جيشه ولأجل هذا اضطر الصليبيون إلى الانسحاب[٤].

وبالرغم من استشهاد الظهير الهكاري شقيق الفقيه عيسى في تلك المعركة فقد أكد ابن شداد أنه رأى الفقيه عيسى وهو «... جالس يضحك والناس يعزونه وهو ينكر عليهم ويقول هذا يوم الهناء لا يوم العزاء ...»[٥]. والواقع أن تفاصيل

---

(١) ابن شداد : النوادر ٧٧.

(٢) ابن الأثير : الكامل ١٠: ١٨٦-١٨٧.

(٣) ابن شداد : النوادر ٧٧.

(٤) ليلى عبد الجواد : «أضواء على الأكراد الهكارية» ١٧٤.

(٥) ابن شداد : النوادر ٧٧.

الروايات تؤكد أنه بالرغم من المكانة العالية التي شغلها الفقيه عيسى لدى صلاح الدين فإنه كان يقف في صفوف المحاربين ويتصدر القتال وكأنه أحد الجنود ويقاتل بنفسه وليس بصفته قائدًا يحرك الجموع يمنة ويسرة فحسب، علاوة على استشارة صلاح الدين له في المناورات والخطط العسكرية ونزوله على رأيه في كثير من المواقف كعهد صلاح الدين مع كبار الأمراء والمستشارين، وقد رأى الفقيه عيسى أن في انتقال صلاح الدين إلى الخروبة بالرغم من انتصاره على الصليبيين في معركة عكا الكبرى أنه رأي غير جيد «... ثم أمر السلطان بالانتقال من تلك المنزلة إلى منزلة تُعرف بالخروبة، وكان ليس برأي جيد، فلو أقام مع مشيئة الله ـ عز وجل ـ لكان أصلح»[1]، وقد وفق الفقيه عيسى في هذا الرأي وبخاصة أن ابتعاد صلاح الدين عن عكا قد أدى إلى عزله عنها بعد إحاطة الصليبيين بها في الوقت الذي أمل فيه صلاح الدين في جمع عسكره وإراحتهم للعودة مرة أخرى لحصار عكا ولكنه فشل في تحقيق ذلك.

وفيما يخص **دوره السياسي والدبلوماسي** فبداية ينبغي الإشارة إلى أن الهكارية شاركوا في الحياة السياسية في مصر وبلاد الشام بشكل ملحوظ وبخاصة في عصري نورالدين وصلاح الدين وبات لرأيهم قيمة ولمواقفهم ثقل، واتخذ منهم صلاح الدين سفراء ورسل له لدى الأمراء والقادة، ومنهم من تدخل في مفاوضات الصلح بين صلاح الدين وبين القوى المحيطة به[2]. وقد اضطلع الفقيه عيسى بعدة مهام سياسية ودبلوماسية منذ وقت مبكر، وإن كانت المهمة الأخطر التي قام بها دوره في إسناد الوزارة إلى صلاح الدين عقب وفاة عمه أسدالدين

---

(١) ابن أيبك (أبو بكر بن عبد الله بن أيبك الدواداري، المتوفى سنة ٧٣٦هـ/١٣٣٦م): كنز الدرر وجامع الغرر، الدر المطلوب في أخبار بني أيوب، تحقيق: أ. هارمان، ٧: ١٠٠ـ١٠٢، المعهد الألماني للآثار، القاهرة، ١٩٧١م.

(٢) انظر في ذلك: ليلى عبد الجواد: «أضواء على الأكراد الهكارية» ١٥٥ـ١٨٥.

شيركوه ، وقد يُفهم من هذا الموقف أنه حظي لدى صلاح الدين فيما بعد تقديرًا لدوره في دعمه ومساندته فحسب ، غير أن شخصية الفقيه عيسى كانت قوية ومؤثرة وقاده نجاحه في المهمات التي كلف بها إلى ثقة صلاح الدين فيه ولأجل ذلك أسند إليه المهام الحساسة التي تحتاج إلى شخصيات تتصف بالقوة والحزم والحكمة.

وانقسمت المهام التي أُسندت إليه إلى داخلية وخارجية ، وقد أدى الفقيه عيسى بعضها خلال حملات شيركوه على مصر ووزارته القصيرة ، بينما أدى بعضها الآخر خلال وزارة صلاح الدين أو خلال سلطنته. ولعل أول ما وقف عليه الباحث من المهمات التي كُلف بها الفقيه عيسى من قبل نورالدين ـ خلال حملات شيركوه على مصر وقبيل وزارته بقليل ـ حينما ندبه نورالدين برسالة فائقة الخطورة ظاهرها إلى الوزير الفاطمي شاور بن مجير السعدي وباطنها إلى الخليفة الفاطمي العاضد عام ٥٦٤هـ/١١٦٨م ، وتمثل سبب تلك المهمة في وقوف نورالدين على أخبار مؤكدة بأن شاوَر يفكر في ترك مصر للصليبيين حينما يعجز في نهاية المطاف عن الاحتفاظ بها أمام ازدياد أطماع نورالدين فيها.

وحينما أيقن العاضد أن مخطط شاور سيقود مصر إلى الوقوع في قبضة الصليبيين فإنه بعث برسالة سرية إلى نور الدين مستنجدًا ، فكلّف الأخير شيركوه بالتوجه إلى مصر ليحميها من الصليبيين وذلك في عام ٥٦٤هـ/١١٦٨م ثم «... أرسل الفقيه عيسى الهكاري إلى مصر برسالة ظاهرة إلى شاوَر يعلمه أن العساكر واصلة ، وبرسالة سرية إلى العاضد ، وأمره أن يستحلفه على أشياء عيّنها ، وأن يكتم ذلك من شاوَر»[1] ، ونجحت مهمته ووصل جيش نورالدين بقيادة شيركوه إلى مصر وأطاح بآخر آمال الصليبيين في الاستيلاء عليها ، وهذا يعني على ما أشار

---

(١) أبو شامة : الروضتين ، ١: ٤٣٢.

ايليسيف Elisseeff أن مهمة الفقيه عيسى كانت بمثابة مقدمة للحملة الثالثة التي قادها شيركوه على مصر ونجح في وقف شاور عن استمراره في التلاعب بالمعسكرين الإسلامي والصليبي في بلاد الشام[١].

وترتب على نجاح الفقيه عيسى في مهمته السابقة نتيجة غاية في الخطورة وهي نيله ثقة شيركوه مما دفعه إلى أن يسند له مهمة أخرى ممثلة في تحذير شاور من العبث مع شيركوه مرة أخرى ـ على ما فعل في الحملتين السابقتين عامي ٥٥٩هـ/ ١١٦٤م، ٥٦٢ـ٥٦٣هـ/١١٦٧م ـ وأن يفي له ولجيشه بالأموال التي وعد بها، وحينما لم يلق شاور بالًا بنصح الفقيه عيسى ولم يدبر المال المتفق عليه فقد حذره الأخير مرة أخرى ولكن هذه المرة من خطورة التردد على معسكر شيركوه بظاهر القاهرة خوفًا من غدر الجند والقادة به «... أخشى عليك ممن معي من الناس فلم يكترث ...»، ولكن شاور لم يهتم لذلك ولم يبعث بالمال المتفق عليه وتردد على معسكر شيركوه، هذا في الوقت الذي علم فيه الأخير بسعي شاور للتخلص منه من خلال مأدبة يدعوه وكبار جنده إليها، فحينما تردد شاور على معسكر شيركوه فقد التف حوله مجموعة من الأمراء وقبضوا عليه وفصلوا بينه وبين جنوده ومرافقيه وسرعان ما قتلوه بناءً على نصح الخليفة العاضد[٢].

أما عن موقف الفقيه عيسى من وزارة صلاح الدين للفاطميين فقد حاز به إعجاب المؤرخين المعاصرين بسبب أسلوبه في التعامل مع تلك القضية ونجاحه في

---

(١) N. ELISSEEFFE, *Nur ad-Din, un Grand Prince Musulman de Syrie aux temps des Croisades,* vol 2., Damascus (1967), pp.630-634. See also: G. SCHLUMBERGER, *Campagnes du Roi Amaury I de Jérusalem en Egypte,* (Paris, 1906), pp.104, 116-118, 125-148; R. ROHRICHT, «Amalrich I Koig von Jerusalem», in Miabeilugem des Institus fur Osterreicbiscbe Gescbicisfasrschung, XII, (1891), pp.432-481.

(٢) البنداري: سنا البرق الشامي ٤١.

إسناد الوزارة إلى صلاح الدين. ولكن ألم يكن أحرى بالفقيه عيسى الانحياز إلى جانب أمراء أعلى رتبة وأكثر خبرة من صلاح الدين ؟ يبدو أن الفقيه عيسى لمح في صلاح الدين من صفات القيادة ما لم يجدها في الآخرين ولعل أبرزها قوة الشخصية والشجاعة والخلق الرفيع وجمعه بين اللين والحزم.

وقد يُفسّر انحياز الفقيه عيسى إلى صلاح الدين على أنه انحياز إلى الفريق الكردي على حساب الفريق التركي الذي مثله عين الدولة الياروقي ، ولا يستبعد الباحث هذه الفرضية ولكنها لم تكن دافعه الوحيد ؛ فقد كان بين القادة المتنافسين قائدان كرديان مرموقا المكانة هما : سيف الدين المشطوب الهكاري ، وشهاب الدين محمود الحارمي ـ خال صلاح الدين ، وإذا عُدَّ الانحياز إلى الأكراد الهكارية وحده تفسيرًا لموقف الفقيه عيسى لكان من المنطقي أن ينحاز إلى سيف الدين المشطوب باعتباره ابن منطقته ورفيقه ولمكانته الرفيعة في الجيش النوري.

وتنم المناورات التي قام بها الفقيه عيسى في دعم وزارة صلاح الدين عن الذكاء والحكمة والمهارة ، لأنه جزأ المشكلة إلى أقسام طبقًا لخبرته بطبيعة الشخصيات المنافسة لصلاح الدين وتعامل مع كل شخصية على حدة. وقامت مناورته الأولى مع سيف الدين المشطوب على الواقعية السياسية حينما نجح في إقناعه بأنه سوف يخسر لا محالة في وجود قادة آخرين لهم نفوذهم وقوتهم «... إن هذا الأمر لا يصل إليك مع وجود عين الدولة والحارمي وابن تليل ...»[1] ، ونصحه بأنه من الأنسب له أن يكون قائدًا تحت إمرة صلاح الدين الذي سيقدر موقفه وقتها ، وقد فهم المشطوب الرسالة وأدرك أن قراءة الفقيه عيسى للواقع صائبة ، فترك صفوف المعارضة وانضم إلى المؤيدين لصلاح الدين ، وبذلك زالت واحدة من أهم العقبات التي حالت دون وزارة صلاح الدين وإلى قيادة الجيش النُّوري في مصر.

---

(١) ابن خلكان : وفيات الأعيان ٧: ١٥٤.

وانتقل الفقيه عيسى إلى المُنافس الثاني شهاب الدين الحارمي ولعب على القرابة بصفته خالًا لصلاح الدين «... هذا صلاح الدين هو ابن أختك ومُلكه لك ، وقد استقام الأمر له فلا تكن أول من يُسعى في إخراجه عنه ، ولا يصل إليك ...» وزرع اليأس في ذاته حتى أحضره إلى صلاح الدين ليُقسم له بالولاء[١].

أما قطب الدين خسرو الهذباني[٢] فقد اختار الفقيه عيسى العصبية الكردية مدخلًا إليه فضلًا عن إطماعه في مزايا مالية إضافية «... إن صلاح الدين قد أطاعه الناس ، ولم يبق غيرك وغير الياروقي ، وعلى كل حال فيجمع بينك وبين صلاح الدين أن أصله من الأكراد ، ووعَدهُ وزاد في إقطاعه» ، فترك قطب الدين صفوف المعارضة أيضًا وأعلن دعمه لصلاح الدين.

ولم يبق من المعارضين سوى عين الدولة الياروقي ، وقد أيقن الفقيه عيسى أن المداخل السابقة لن تنفع في التعامل معه لأنه كان أخطر المعارضين وأصلبهم ، ولذلك تركه إلى النهاية وشرع في تكوين حلقة فراغ حوله من خلال استقطاب المعارضين الآخرين ، وقاده تدريجيًا إلى مفترق طريقين : إما الانضواء تحت قيادة صلاح الدين ، وإما الابتعاد عن ساحة المنافسة بعد أن بات وحيدًا «... وكان أكبر الجماعة وأكثرهم جمعًا ، فلم تنفعه رُقاه ـ أي رُقى الفقيه عيسى ـ ولا نفذ فيه سحره ، وقال : أنا لا أخدم يوسف أبدًا ، وعاد إلى نورالدين ومعه غيره فأنكر عليهم فراقه وثبت قدم صلاح الدين ورسخ مُلكه ...»[٣] ، وقد تنبّه نورالدين إلى

---

(١) ابن خلّكان : وفيات الأعيان ٧: ١٥٤ـ١٥٥.

(٢) قطب الدين خسرو : هو بن أخي أبي الهيجاء الهذباني حاكم إربل وتمتد جذوره إلى أسرة كردية عريقة . انظر : ابن خلّكان : وفيات الأعيان ٧: ١٥٤ـ١٥٥.

(٣) ابن خلّكان : وفيات الأعيان ٧: ١٥٥. وأيضًا :

أحمد الخليل : مشاهير الكرد في التاريخ : الفقيه عيسى الهكاري (المتوفى سنة ١١٨٩/٥٨٥م) مهندس الدولة الأيوبية على الرابط :

=

خطورة ابتعاد الياروقي وبقية التركمان المعارضين من مصر، ولكن كان الأوان قد فات.

وبذلك أدت المناورات التي قادها الفقيه عيسى إلى تثبيت أقدام صلاح الدين في الوزارة ومن ثم في قيادة الجيش النوري في مصر، ولأجل هذا الموقف فقد وُصف الفقيه عيسى «بمهندس الدولة الأيوبية» وأنه لولا مناوراته البارعة لما وصل صلاح الدين للوزارة ولما بات للأيوبيين دولة[١].

وواصل الفقيه عيسى دوره المهم في تثبيت أقدام صلاح الدين في مصر حينما اضطلع بمهمة استرضاء نورالدين[٢]، وكان سببها محاولة صلاح الدين توضيح الانطباع الخاطئ الذي تركه القادة التركمان الذين عادوا إلى دمشق وعلى رأسهم الياروقي لدى نورالدين عن صلاح الدين وإخافته من تعاظم نفوذه في مصر، وعلى ما يبدو فقد تأثّر نورالدين بهم وشرع في استفزاز صلاح الدين لاستدراجه إلى إعلان العصيان فيكون عصيانه حجة لاستبعاده عن مصر، وذكر أبو شامة في روايته عن ابن أبي طي الحلبي قوله: «... فلما حصل عنده جميع ذلك أرسل معه هدية إلى نور الدين على يد الفقيه عيسى ...»[٣]، في محاولة من صلاح الدين لاسترضاء سيده وإزالة ما علق بصدره من هواجس ضده وإن لم تُعلق المصادر المعاصرة على هذه الوفادة التي قام بها الفقيه عيسى.

ولكن يبدو أن الفقيه عيسى نجح في تحقيق الغرض من مهمته السابقة بدليل إرسال صلاح الدين له إلى نورالدين مرة أخرى ليعتذر عن انسحابه من أمام الكرك

=(http://www.gilgamish.org/printarticle.php?id=8782)

(١) أحمد الخليل: مشاهير الكرد

(http://www.gilgamish.org/printarticle.php?id=8782)

(٢) الصفدي: الوافي بالوفيات ١٧: ٣٦٦-٣٦٧.

(٣) أبو شامة: الروضتين ١: ٥٥٨-٥٥٩.

عام ٥٦٨هـ/١١٧٣م ، والواقع أن هذه المهمة لم تكن سوى نتيجة طبيعية لنجاحه في المهمة السابقة وإلا ما بعث به صلاح الدين مرة أخرى لفض أي إشكال أو خلاف بينه وبين سيده نورالدين لمكانة الفقيه عيسى وتمتعه بقوة الشخصية والحزم والحكمة ، ناهيك عن أن كل مهمة ناجحة كانت ترفع من مكانته وتقوده إلى مهام أخرى.

وكان سبب مهمة الكرك تلك أن صلاح الدين بعث بالفقيه عيسى رسولًا إلى نورالدين يحمل اعتذار صلاح الدين بسبب اضطراره إلى الرحيل عن الكرك إلى مصر لاضطراب أحوالها ولعلمه المسبق بما يدبر له بعض المعارضين لوجوده في مصر من بقايا الفاطميين والمتشيعين لهم وبخاصة عمارة اليمني ومؤامرته التي وقف عليها صلاح الدين وكان ينتظر الوقت المناسب للتخلص من المتآمرين على ما فعل بعد أقل من عام. وينم اختيار صلاح الدين للفقيه عيسى للقيام بهذه المهمة أيضًا عن المكانة الكبيرة التي شغلها الرجل بين أمراء عصره وقادته وبخاصة أن العلاقات بين نورالدين وصلاح الدين قد توترت إلى حد كبير بحيث لم يكن يصلح لمواجهة نورالدين وتقديم الاعتذار له سوى شخصية مرموقة ومؤثرة وتحظى بتقدير الطرفين ، ويبدو أن سفارة الفقيه عيسى قد أدت الغرض منها في ظل ما ردده بعض المؤرخين على لسان نورالدين بأن حفظ مصر أهم عندنا[١] ، حتى وإن لم يُظهر الأخير عكس ذلك بدليل عدم تحركه ضد صلاح الدين[٢].

وعلى الرغم من عدم إشارة ابن الأثير إلى صفة الرسول الذي اعتذر لنورالدين عن انسحاب صلاح الدين من أمام الشوبك ٥٦٧هـ/١١٧١م فإنه أشار إلى انفعال نورالدين وغضبه وعدم قبوله عذره بالانسحاب ، وبالغ ابن الأثير في عرض

---

(١) ابن الأثير : الكامل ١٠: ٤٩-٥٠.

(٢) نفسه ١٠: ٣٦؛ ابن خلكان : وفيات الأعيان ٧: ١٦٢-١٦٣.

تبعات ما حدث بأن نورالدين قرر مهاجمة مصر وإخراج صلاح الدين وأسرته عنها مثلما بالغ في وصف رد فعل صلاح الدين وأسرته على ما وصلهم من أقاويل نورالدين وتحفزهم لملاقاته[١]، ولأجل هذا فإن تمثيل الفقيه عيسى لصلاح الدين أمام نورالدين هذه المرة فيه دلالة وبُعد نظر تعكس حرص صلاح الدين على استخدام من يثق به وينقل الواقع إلى نورالدين «... وأرسل مع الفقيه عيسى من التحف والهدايا ما يجل عن الوصف، فجاء إليه فأعلمه برسالة صلاح الدين فعظم عليه، ولم يظهر التأثر بذلك ...»[٢].

وكُلف الفقيه عيسى بعدة مهمات سياسية ودبلوماسية في أثناء سلطنة صلاح الدين، منها مهمته الدبلوماسية التي رافق فيها القاضي الفاضل والعماد الأصفهاني[٣] إلى حلب عام ٥٧٧هـ/١١٨١م في وجود رسول الخلافة العباسية شيخ الشيوخ وشهاب الدين «... واستدعى (أي صلاح الدين) من ثقاته الذين يسمعون فصولهم فتقدم إلى الأجل الفاضل وإليّ وإلى الفقيه ضياء الدين عيسى الهكاري ...» بهدف إحداث نوع من التوافق بين حلب وصلاح الدين تمهيدًا لفرض الأخير سيطرته على الموصل، بيد أن القاضي الفاضل انسحب من المفاوضات وتبعه بعد قليل الفقيه عيسى لعلمهما بأنه لا طائل من مفاوضة من

---

(١) ابن الأثير: الكامل ١٠: ٣٦، ٤٩ـ٥٠؛ ابن خلكان: وفيات الأعيان ٧: ١٦٢ـ١٦٥.

(٢) ابن العديم: زبدة الحلب ٢، ٣٣٩.

(٣) القاضي الفاضل عبد الرحيم ابن علي البيساني من أبرز رجال الدولة الأيوبية حيث وزر لصلاح الدين ولولده وكان لهما مستشارًا سياسيًا وعسكريًا وله دور كبير في كثير من الانجازات التي حققها صلاح الدين الأيوبي، أما العماد الأصفهاني فكان أحد المؤرخين اللامعين والسياسيين البارزين الذين رافقوا صلاح الدين وخدموه وله مؤلفات تاريخية كثيرة تُعد من أهم مصادر التأريخ لهذه الفترة. انظر: حجازي عبد المنعم سليمان: «أصداء التخطيط السياسي والعسكري لدى صلاح الدين من خلال رسائل القاضي الفاضل وديوانه»، حولية كلية الآداب، جامعة المنوفية،، العدد الثالث والثمانون، أكتوبر ٢٠١٠، ٢٩٣ـ٣١٧.

يراوغ بالكلمات ولا ينوي أن ينقل الكلام إلى أرض الواقع «... وذكروا مطالب متكثرة ومآرب متعذرة واقترحوا إعادة البلاد المأخوذة ... ثم انقطع الفقيه عنهم...»[١].

بيد أن انسحاب الفقيه عيسى لم يكن بلا جدوى وذلك لأنه كُلف بمهمة أخرى خارجية هدفت إلى تعويض التفاهم الذي لم يحدث مع الحلبيين بسعي صلاح الدين لبسط سلطانه على إقليم الجزيرة المدينة تلو الأخرى لخلق حالة من

---

(١) البنداري: سنا البرق ٢٠٥-٢٠٦.

قام جوهر هذا التفاوض على أساس تحرك صلاح الدين تجاه الموصل متهمًا أمرائها بدفع الصليبيين لمقاتلته، ناهيك عن تحالفهم مع أعداء الخليفة على ما ورد في الرسالة الطويلة التي بعثها صلاح الدين إلى دار الخلافة، فاستجابت الخلافة بإرسال مبعوثين على رأسهم شيخ الشيوخ للتوسط بين صلاح الدين والمواصلة والحلبيين. ودارت المفاوضات حول ضرورة انحياز المواصلة إلى صلاح الدين في حروبه ضد الصليبيين وليس لإخضاع الموصل لسلطان صلاح الدين، ولكن تمسك أمير الموصل بسيادته على حلب وبحقه في التصدي لمن يوجه إليها أي خطر، بينما صمم صلاح الدين على بسط سلطانه على إقليم الجزيرة كي يخنق الموصل، فأخضع لسلطانه سنجار ودارا وضغط على حران للتضييق على مسعود أمير الموصل، ثم اخضع أمد لسلطانه هي الأخرى واعترف به أمراء ماردين وميافارقين، ثم استولى على تل خالد وعينتاب من معاقل حلب الأمامية عام ٥٧٩هـ/١١٨٣م، ثم تسلم حلب من أميرها عماد الدين زنكي الثاني مقابل أن يعوضه عنها بسنجار، فوافق صلاح الدين وأضاف إليه أيضًا الخابور ونصيبين والرقة وسروج، كما اشترط عليه أن يُرسل إليه عساكره للغزاة حين يقتضي الأمر ذلك.

وبذلك ظلت الموصل وحدها خارجة عن قبضة صلاح الدين فاتجه إليها وحاصرها للمرة الثانية في ربيع الأول ٥٨١هـ/يونيو سنة ١١٨٥م، ولكنه اضطر أيضًا إلى ترك حصارها ليفتتح بلادًا أخرى، ثم عاد لحصار الموصل للمرة الثالثة، وأخيرًا وجد عزالدين مسعود أنه لا فائدة من معاداة صلاح الدين فأرسل في طلب الصلح، وكان صلاح الدين قد رفض أول الأمر إجابته إلى طلبه حينما طلب عزالدين مسعود وساطة الخليفة العباسي للصلح، ولكن هذه المرة عُقد الصلح بينهما على أن يعترف مسعود بتبعيته لصلاح الدين، وأن يُخطب له على منابر بلاده، وأن يضرب اسمه على السكة. عن حروب صلاح الدين في تلك الجبهة وتحركاته بها انظر: البنداري: سنا البرق، ٢٠٠-٢٠١؛ ابن الأثير: الكامل ١٠: ٩٧-١٢٢. وأيضًا: ميخائيل السرياني: تاريخ ميخائيل السرياني، ترجمة: سهيل زكار (الموسوعة الشامية، ٥: ٢٨٧-٢٩٣، دمشق، ١٩٩٥م).

الفراغ حول الموصل التي عجز عن السيطرة عليها ، ولأجل هذا فإنه حينما تُوفي شاه أرمن صاحب خلاط وولي بعده غلامه بكتمر عام ٥٨١هـ/١١٨٥م والتفاف رعيته حوله فقد طمع بعض المحيطين به في خلاط وعلى رأسهم بهلوان شمس الدين محمد بن ايلدكز الذي تحرك نحوه ، فبعث بكتمر إلى صلاح الدين لإبلاغه برغبته في تسليم خلاط لمن أراد فطمع فيها صلاح الدين وكان الفقيه عيسى رسوله إلى بكتمر قد سبقه إلى خلاط كي يتفاوض معه على تقرير القاعدة التي سيتسلم صلاح الدين خلاط على أساسها مع اندراج بكتمر في جملته ومنحه ما يُرضيه.

وتزامن وصول الفقيه عيسى إلى خلاط مع قدوم بهلوان إليها ، وفور علمه بمخططات صلاح الدين وتدبيره المتعلق بخلاط فانه عجل بالاتفاق مع بكتمر على أن يزوجه الأخير من ابنته ويوليه على خلاط ، واعتذر بكتمر إلى الفقيه عيسى بقوله إن بهلوان قد : «... جاء ليملك المكان ولو استعجلتم لسهل ما صعب وهان...»[1] ، وكان صلاح الدين قد استولى على ميافارقين آنذاك في الوقت الذي بعث فيه الفقيه عيسى أحد عيونه إلى معسكر بهلوان للوقوف على حقيقة الحال ، وحينما انكشف أمره فإنه صرح بتبعيته للفقيه عيسى ففاوضوه على الاتصال به على أن يكون وسيطًا بينهم وبين صلاح الدين ، وحينما وافق الأخير على وساطة الفقيه عيسى فإنه توجه إليهم «... رسولًا وصادف إقبالًا وقبولًا ووجد كل ما يقترحه مبذولًا وكانوا منا مستوحشين فأنسوا ومن قصدنا إياهم مستشعرين فأمنوا ، ومن حركتنا حذرين فسكنوا ، وبجلوا ضياء الدين وعظموه وكفلوه بالأمر وأطلعوه على السر وصيروه بالأحوال محيطًا بيننا وبينهم وسيطًا»[2].

---

(١) البنداري : سنا البرق ٢٦٤ـ ٢٦٥. وأيضًا : تقي الدين صاحب حماة : مضمار الحقائق ٢٢١.

(٢) البنداري : سنا البرق ٢٦٥.

وهذا يعني أن الفقيه عيسى قد تمكن من تحويل فشله على جبهة خلاط إلى نجاح على جبهة بهلوان ذاته الذي أدى تدخله في خلاط إلى فشل مفاوضات الفقيه عيسى فيها، وبذا تحسّنت العلاقات بين صلاح الدين وبهلوان وترددت رسل الأخير بعدئذ على صلاح الدين واستقرت المهادنة بين الطرفين، وتحقق هدف صلاح الدين في خلاط ولكن بشكل غير مباشر بقول البنداري: «... وعرفنا أن خلاط قد حمى عسلها نحلها ... ففارقنا قصدها بعدما فات انتهاز فرصة الإمكان وخلو عرصة المكان من عسكر البهلوان ...»[١].

وبعدها بقليل بعث صلاح الدين بالفقيه عيسى سفيرًا مرة أخرى في مهمة متعلقة بابن أخيه تقي الدين عمر في مصر عام ٥٨٢هـ/١١٨٦م، وهي مهمة فائقة الحساسية وكان من المُمكن أن تُؤدي إلى زعزعة البيت الأيوبي. وكان سبب ذلك أن صلاح الدين استدعى ولده الأفضل وتقي الدين من مصر بعد أن بلغه أن الأخير يقوم بتحركات في مصر ربما يُفهم منها رغبته في الانفراد بها تزامنًا مع تزايد الإرجاف بموت صلاح الدين في مرضه الذي أصابه في حران عام ٥٨١هـ/ ١١٨٥م، فحينما تعافى صلاح الدين فإنه بعث بأخيه العادل وبرفقته ولده العزيز ليحلا محله في مصر[٢].

وقد عزز صلاح الدين هذا التصرف بإرسال «... الفقيه عيسى الهكاري ... وأمره بإخراج تقي الدين والمقام في مصر، فسار مُجدًا فلم يشعر تقي الدين إلا وقد

---

(١) البنداري: سنا البرق ٢٦٥.

(٢) رأى ابن الأثير أن صلاح الدين لم يفعل ذلك سوى حينما أشار عليه بعض مستشاريه وأصحابه بضرورة الحفاظ على ملكه وأوضحوا له أن مصر بيد تقي الدين وحلب بيد العادل وغيرها وأن أولاده أنفسهم ليس لهم من الأمر شيء مع أعمامهم وأولاد أعمامهم فقام بما قام به وأخذ حلب من العادل وبعثه إلى مصر مع ولده العزيز. انظر: ابن الأثير: الكامل ١٠: ١٣٩-١٤٠. وأيضًا: ابن خلكان: وَفيات الأعيان ٧: ١٧١-١٧٢.

57-san

دخل الفقيه عيسى إلى داره بالقاهرة ، وأرسل إليه يأمره بالخروج منها ، فطلب أن يُمهل إلى أن يتجهز فلم يفعل ، وقال : تقيم خارج المدينة وتتجهز فخرج ، وأظهر أنه يُريد الدخول إلى الغرب ، فقال له : اذهب حيث شئت ، فلما سمع صلاح الدين الخبر أرسل إليه يطلبه ، فسار إلى الشام ، فأحسن إليه ...»[١].

وأكد ابن كثير أن تدخل الفقيه عيسى قد عجل بالصلح بين الطرفين «... ثم سعي بينهما في الصلح الفقيه عيسى الهكاري ...حتى انتظم الحال وآل إلى الاعتدال ...»[٢] وفي هذا تأكيد آخر من المؤرخين المعاصرين للمكانة العالية التي شغلها الفقيه عيسى نتيجة لاضطلاعه بحل المشكلات الداخلية والخارجية.

وقد أكدت المواقف والمهمات التي اضطلع بها الفقيه عيسى أنه كان سياسيًا مُحنّكًا ، ويعرف كيف يتعامل مع أصحاب الطموحات ويمتلك مهارة المناورات السياسية الدقيقة ، حقًا لم يُوفق في بعض الآراء التي طرحها على صلاح الدين والمتعلقة بمواقف حربية خطيرة على ما حدث عام ٥٨١هـ/١١٨٥م حينما نصح صلاح الدين بضرورة تجاهل وفادة النساء اللائي أرسلهن أمير الموصل شفاعة في الهدنة[٣] وان اتضح بعد قليل أنه لم يكن بالرأي الصائب ، بيد أن ذلك لا يُقلل من

---

(١) ابن الأثير : الكامل ١٠: ١٣٩- ١٤٠.

(٢) ابن كثير : طبقات الشافعية ١: ٦٦٥.

(٣) ظن الفقيه عيسى أن أمير الموصل لم يبعث النساء سوى لضعفه ولأن الموصل قد أوشكت على الاستسلام وإن كان الأمر بخلاف ذلك بحيث أظهرت الموصل قوة وعنادًا هذه المرة في صد صلاح الدين «...وبذل العامة نفوسهم غيظًا وحنقًا لردة النساء...» ، وكان الفقيه عيسى يرى أن بلدًا كالموصل : «...لا يُترك لامرأة ، فإن عزالدين ما أرسلهن إلا وقد عجز عن حفظ البلد ، ووافق ذلك هواه ، فأعادهن خائبات واعتذر بأعذار غير مقبولة ، ولم يكن إرسالهم عن ضعف ووهن إنما أرسلهن طلبًا لدفع الشر بالتي هي أحسن ؛ فلما عُدن رحل صلاح الدين إلى الموصل ، وهو كالمتيقن أنه يملك البلد ، وكان الأمر بخلاف ذلك ... فرأى صلاح الدين ما لم يكن يحسبه فندم على رده النساء ...حيث فاته الذكر وملك البلد ، وعاد على الذين أشاروا بردهن باللوم والتوبيخ ...» ، ولم يرض الفاضل عن رد فعل صلاح الدين وعاتبه على=

قدر الفقيه عيسى أو دوره في عصره ولا يُقاس على ذلك الموقف لأن أغلب المهمات التي اضطلع بها الفقيه عيسى كُللت بنجاح كبير ولأجل ذلك قال عنه ابن خلكان أنه كان «... كبير القدر وافر الحرمة معولًا عليه في الآراء والمشاورات»[١].

وعلاوة على دور الفقيه عيسى الفقهي والحربي والسياسي في عصره فإنه كان له دور إداري متواضع منذ استقراره في بيت القدس عام ٥٨٣هـ/١١٨٧م، وبخاصة بعد إسناد صلاح الدين ولايتها إليه لينال شرف أول وال لها بعد استردادها[٢]، وظل الفقيه عيسى واليًا على المدينة حتى وفاته عام ٥٨٥هـ/ ١١٨٩م. وتمثلت أولى مهام ولايته في تنفيذ أمر صلاح الدين بإزالة ما استحدثه الصليبيون من الأبنية والأسوار وكشف الجدار الساتر للمحراب وإزالة ما استحدثه الصليبيون على قبة الصخرة من مبان وصور، ثم عينه أمينًا عليها[٣] فأدار عليها شبابيك من حديد «... وتولاها بعد ذل الفقيه ضياء الدين عيسى، فصانها بشبابيك من حديد وثبت أركانها بكل تسديد»[٤].

=تمسكه بمحاصرة الموصل وتأنيه لمستشاريه وتوبيخهم. انظر: ابن الأثير: الكامل ١٠: ١٣٢.

(١) ابن خلكان: وفيات الأعيان ٣: ٤٩٧.

(٢) ابن الأثير: الكامل ١٠: ١٨٧.

(٣) في استطراد لابن أيبك عن الفقيه عيسى قال فيه: «..فيذكر عن الفقيه الهكاري ـ أمين القدس المقدم ذكره ...». ولعله يقصد بأمين القدس ما أشار إليه هو ذاته وغيره من المؤرخين الآخرين من تكليف صلاح الدين للفقيه عيسى الهكاري بأن يكون أمينًا على الصخرة وأن يدير حولها صفائح من حديد حماية لها. انظر: ابن أيبك الدوداري: الدر المطلوب ٧: ٩٠ـ١٠٠.

(٤) فعل صلاح الدين ذلك نتيجة لأن الصليبيين وبسبب اعتقادهم في كل ما له علاقة بالقداسة والأماكن التي شهدت ميلاد المسيح عليه السلام وحياته فإن حجاجهم وكبار زوارهم كانوا يأخذون وقت عودتهم إلى الغرب بعض التذكارات ـ أو الرفات ـ من الأرض المقدسة ومنها بعض الحجارة المقطوعة من الصخرة المقدسة للبركة «...وكان كل ملك يأتي إلى زيارة القدس يقصد أن يأخذ منها قطعة بحسب=

وترتب على ولاية الفقيه عيسى لمدينة بيت المقدس سكنى الهكارية للمدينة وباتوا يشكلون عنصرًا رئيسًا من سكانها وأوقف عليهم صلاح الدين الأوقاف[١].

واعترافًا بفضل الفقيه عيسى وأمانته ودوره في الدولة الأيوبية فقد خصص له صلاح الدين بعد استرداد عكا عام ٥٨٣هـ/١١٨٧م جميع ما تعلق بجماعة الفرسان «... الداوية من منازل وضياع، ومواضع ورباع، فأخذها بما فيها من غلال ومتاع ...»[٢] فتصرف فيها الفقيه عيسى «... وحصل على حواصلها وعقايلها ووقع في مراعيها المربعة نوابه وأثرى بثراه وثروتها أصحابه وولجوا المخازن واستخرجوا الدفائن وكذلك مماليك الملك الأفضل أصحابه ...»[٣] تكريمًا للفقيه عيسى واعترافًا بدوره، كما جعله الملك الأفضل أمينًا على عكا بعد أن أنعم صلاح الدين عليه بجميع ما فيها من أموال الصليبيين وغلالهم وحواصلهم وجميع نواحيها «... وجعل الفقيه الهكاري أمينًا بها من قبل الملك الأفضل»[٤].

والخلاصة أن الفقيه عيسى الهكاري شارك مع غيره من الأكراد الهكارية وغيرهم في بناء الدولة الأيوبية، سواء في بناء جيشها أم بصفته عضوًا بارزًا في مجلس مشورة صلاح الدين وإمداده بكثير من الآراء الصائبة، علاوة على دوره كسفير دبلوماسي بارع نجح في فض عدة إشكالات سياسية ودبلوماسية، ولم

=البركة ...»، وحينما استعادها صلاح الدين فإنه أوكل إلى الفقيه عيسى الحفاظ عليها وصيانتها. انظر: أبو شامة: الروضتين ٣: ٢٥٧.

(١) البنداري: سنا البرق ٣١٦-٣١٧. وكذلك: ثريا بنت محمد الغانمي: بيت المقدس في العصر الأيوبي ١٩٩؛ ليلى عبد الجواد: «أضواء على الأكراد الهكارية» ٢٨١-١٨٢.

(٢) الأصفهاني (محمد بن صفى الدين أبى الفرج، المتوفى سنة ٥٩٧هـ/١٢٠١م): الفتح القسي في الفتح القدسي، القاهرة - دار المنار، ٢٠٠٤م، ٥٥. وأيضًا: أبو شامة: الروضتين ٣: ١٩٩-٢٠٠.

(٣) البنداري: سنا البرق ٣٠٠.

(٤) ابن أيبك الدوداري: الدر المطلوب ٧: ٩٤.

يبخل عليه صلاح الدين بالمناصب والمنح والهبات مكافأة له على دوره في قيام دولته وحمايتها. وقد أكدت المهمات التي اضطلع بها الفقيه عيسى أنه لم يكن مجرد عالم دين يجيد الغوص في بطون الكتب الدينية والربط بين الفروع والأصول فحسب وإنما كان محاربًا شجاعًا وسياسيًا مُحنّكًا يُجيد قراءة الشخصيات والأفكار ويعرف كيفية التعامل مع أصحاب الطموحات ، ويعلم بدقّة مراكز القوى المحيطة به ويمتلك مهارة المناورات السياسية الدقيقة ، ومثّل أنموذجًا مثاليًا لعالم الدين الذي نجح في الجمع بين العلم والعمل على أرض الواقع.